

مكانة الزعيم في الديانات القديمة بين التقديس والتدنيس

هاني نورية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم

ملخص

تعتبر الزعامة مطمح الأفراد عبر الأجيال البشرية؛ لما يُرَخَّصُ به للزعيم من صلاحيات، ويمنح من استحقاقات من قبل من ولّوه الزعامة، وذلك نتيجة لخدماته الجليلة التي نبأهم بقدرته على الذود عنهم، غير أن الشعوب القديمة قد تُغفل هذا الدور في حالة استشعرت من زعيمها تقصيرا، بسبب العجز أو التملص من واجباته تجاهها لاسيما إذا تعلق الأمر بمعتقداتها، هذا ما وضع الزعيم البدائي في مخاطرة عكستها مكانته المضطربة بين الحدود المقدسة والمدنسة. ويعود بنا هذا البحث إلى تلك الحقب القديمة ليحسّ النبض حول شرايين الزعامة وهي تتقلب بين الكرسي والمقصلة، مُخَلِّفة لدى هذه الشعوب بدورا لديانات سادت ردحا من الزمن ثم حبت آثارها واندثرت.

الكلمات المفتاحية: الزعامة البدائية، الديانات القديمة، التقديس، الآلهة، القوى الغيبية.

Résume

L'importance du chef dans les anciens temps entre sacralisation et désacralisation.

Le leadership est considéré comme une ambition recherchée par chaque individu à travers les générations, étant donné les avantages que ça procure au Reader par les individus qui t'ont choisi en raison de sa capacité, à les défendre et des services qu'il put leur apporter.

Néanmoins les anciens peuples pouvaient négliger ce rôle s'ils sentaient une incapacité chez leur chef on s'il tentait d'échapper à ses devoirs surtout s'il s'agissait de leurs croyances, ce qui pouvait mettre le chef en difficulté (danger) comme le montre son importance entre sacralisation et désacralisation.

Cette recherche nous amène à partir des anciens temps où le chef était toujours pris entre deux feux : les avantages que lui procuraient leadership et les dangers que représentaient cette position, laissant aux peuples les premières de croyances et de religions qui ont prévalu pendant une longue période pour finir par disparaître sans laisser de trace.

Mots clés : leadership primitive, religions ancienne, sacralisation, dieux, forces invisibles.

مقدمة

الإنسان مخلوق اجتماعي بطبعه، فليس معقولا أن تجد كل فرد من الأفراد يحيا بمفرده، منزويا ومنعزلا عن الآخرين، فحتى الحيوانات التي تفتقر للعقل نراها تعيش في كنف أصنافها وأنواعها، ولهذا فلا شك أن الإنسان البدائي قد عاش ضمن جماعات، ولاشك أنه اتخذ لجماعته هذه قائدا أو زعيما يقودها، ترى فيه مواصفات تؤهله لهذه المهمة، فما السبب وراء ظهور الزعامة؟ وما هي مواصفات هذا الزعيم كي توكل إليه مهمة قيادة المجموعة؟

الأزمة والزعماء

"لعل تواتر الكوارث الطبيعية (حرائق وزلازل وفيضانات)، واستمرار الأخطار الخارجية (حروب وصراعات وغزوات)، وتعاضم الاحتياجات الداخلية (تأمين الغذاء والأمن والاستقرار)، كانت من جملة الضرورات والاهتمامات التي أضفت على شخصية القائد تلك الهالة من الاعتبار والتوقير. على خلفية موقف حكيم تميز به، أو رأي شديد أفصح عنه، أو قرار شجاع أبدع فيه، أو سابقة معيارية نسبت له... ولما كانت الأعمال المتميزة والأفعال الاستثنائية هي من اجترح الأشخاص لا الجماعات والأفراد لا المجتمعات"¹. فإن "فكرة (الزعامة) لم تكن سوى الوليد الذي أنجبته الظروف القاسية والأوضاع الشاذة، التي استشعر الإنسان القديم من خلال مقدار عجزه عن مواجهتها كأفراد متفرقين وجماعات مشتتة، وبالتالي مقدار حاجته لمن يتصدى لتداعياتها ويدراً عنه أخطارها"².

الواقع أن تراكم الأزمات على تعدد أصنافها وتحديق الأخطار على اختلاف منابعها قد جعلت الجماعة تختار من بين أفرادها قائدا رأت فيه مواصفات تؤهله للقيادة، فالرأي السديد الذي يوجه الأوضاع نحو الأفضل، والقرار الصواب الذي ينقذ من الهلاك، والعمل الاستثنائي الذي يعكس نباهة صاحبه ورجاحة عقله كانت من جملة المعايير التي تصنع من الفرد العادي شخصا جديرا بالزعامة، وهي ذاتها ما يخلق الفارق بين الزعيم وباقي أعضاء الجماعة.

"ولأن الوعي الجمعي لتلك الأقوام والجماعات، لم يبرح يختزن بين طبقات أرشيفه اعتقادات وتصورات مضمونها إن كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر وموجودات، تمتلك في ماهيتها طاقات روحية تتناسب وحجم قدرتها التأثيرية ومدى سطوتها الإيجابية. مما يستتبع إن كل من تتوفر لديه الإمكانيات المادية والمؤهلات المعنوية؛ إما لاحتواء غضبها واستبعاد مضارها أو لاستئثار عطفها واستحلاب خيراتها، يغدو مرشحا لأن يحاط بهالة من الاعتبار الاجتماعي والتوقير الرمزي، وذلك تعبيرا عن تعالي مقداره وسمو مكانته وطغيان هيئته. ولهذا فليس بلا سبب أن تسبغ تلك الجماعات البدائية طابع الإجلال – والقداسة في الغالب – على أسلافها الأوائل، الذين اجترحوا المآثر وحققوا الانجازات ولبوا الطموحات، معتقدين بأن كل ما تمخض عن

1 – ثامر عباس. تقديس الزعامة دراسة في ظاهرة الكاريزما السياسية، منشورات الاختلاف/ منشورات ضفاف، الجزائر/ الرباط، 2015، ص 57.

2 – المرجع نفسه، ص 60.

أفعالهم الطقوسية وممارساتهم الشعائرية، ما كان لها أن تغدو وجودا ملموسا وواقعا معاشا، لولا وجود تلك الصلات الخفية التي تربطهم بالآلهة، وتلك العلاقات السرية التي تشدهم إلى الأرباب، وعلى ذلك (يذكر ثامر عباس بأنه) بينما تبدو فكرة تجسد الآلهة في صورة بشرية غريبة بالنسبة لنا، فلم يكن فيها ما يدعو للعجب أو الدهشة بالنسبة للإنسان المبكر، الذي لم يكن يعتبر (الإنسان الإله) أو (الإله الإنسان) سوى درجة أعلى وأسمى من نفس تلك القوى الفائقة للطبيعة، التي نسبها بكل صدق وإيمان إلى نفسه هو³.

وبالتالي فالاعتبار الاجتماعي لا يتأتى لكل الأفراد، بل إن الفوارق الفردية هي التي تجعل الفرد يتميز عن غيره، وهذه الفوارق تقاس بمقدار ما يمتلك من طاقات روحية وقدرات تأثيرية؛ تؤهله ماديا ومعنويا لاحتواء غضب الكوارث واستبعاد مضارها أو جلب عطفها وخيراتها. ولهذا فقد حظي الأسلاف - الذين أثبتوا جدارتهم بتحقيق الآمال والوقوف في وجه الأزمات - بالتبجيل والتقدیس من قبل جماعاتهم التي ينتمون إليها، ظنا منهم أن الإنسان لن يقوم بالمعجزات ما لم تتجسد فيه قوى إلهية، أو يكن فيه نفحة من نسبها، وبالمختصر المفيد لن يفعل ذلك ما لم يكن لها، وهذا الأمر لا يدعو للعجب؛ ذلك أن الإله عندهم لا يختلف كثيرا عن البشر إلا في قوته الفائقة. ولهذا "كلما ازدادت وطأة الشقاء في الوعي واستفحلت شدة الاغتراب عن الذات، على خلفية زج المجتمعات المأزومة والشعوب المحرومة والأمم المهضومة في أتون؛ الأزمات (على تعدد أنواعها)... كلما تعاظمت (تطلعاتها) إلى ميلاد/ ظهور شخصية المنقذ/ المخلص؛ سواء كان برداء الزعيم السياسي المعتمر خوذة العسكر في الغالب، أو بجلباب المرشد الديني المعتمر عمامة الدين في العادة"⁴.

وبناء عليه، فالبطل المنقذ لا يكون زعيما سياسيا تلجأ إليه الشعوب لتسيير أفرادها وتنظيم حياتهم وحمايتهم من الأخطار التي تترصد لهم فحسب؛ بل يستطيع أن يكون مرشدا دينيا تستشيريه في أمرها يوم تخرج الأمور عن سيطرتها؛ لاسيما إن كان الأمر يتعلق باعتقادها وتوجهاتها الدينية. وهنا تتساءل: على أي أساس تم انتقاء هذا الزعيم البطل؟ هل على أساس قوته البدنية ومواقفه البطولية؟ أم على أساس طاقاته الروحية وآرائه الإصلاحية؟

3 - المرجع نفسه، ص 58.

4 - ثامر عباس. مرجع سابق، ص 248.

متطلبات الزعامة

على غرار كل عملية انتقاء للأشياء أو للأشخاص التي تخضع لمعايير ومواصفات، يستند القدامى إلى جملة من المعايير يرون توفرها في القائد ضرورية لأداء مهامه على أكمل وجه؛ فهم "وفقاً لطبيعتهم النزاعة إلى الاستقلال من كل تبعية، وكينونتهم التواقة إلى التحرر من كل قيد — حتى وإن كانوا في أوطأ مراحل التطور الحضاري وأدنى مراتب التمدن الإنساني — لا يسلمون قياد أمرهم كيفما اتفق لمجرد أن (المتزعم) ينتمي لسلالتهم، ولا يحفظون زمام قيادهم لكل عابر سبيل لمجرد كونه من صلب قبيلتهم"⁵. إذن فالجماعات لم تكن تسلم القيادة لأي كان، لمجرد كونه ينتمي إليها؛ بل كانت تفعل ذلك بناء على شروط معينة. ومن جملة الشروط الواجب توفرها في الزعيم (البطل) البدائي هي التزامه "بتقديم كل ما من شأنه، ليس فقط إثبات (انتمائه) للجماعة التي يمثلها ويترأسها فحسب، وإنما البرهان على تمسكه بذلك الانتماء والحرص على تدعيمه كذلك، والتدليل بالتالي على حمايته إياها من الأخطار والتهديدات الخارجية"⁶.

لذا فمن غير المعقول أن يحافظ القائد على مكانته بين جماعته وهو ينعم بكرسي الرئاسة وسائر أنواع التيجيل لمجرد انحدره من سلالتهم، وحمله لمورثاتهم ودمائهم، إنما عليه أن يظل متمسكاً بأواصر انتمائه لهم، ومبرهنًا على أنه جاهز لبذل كل قوته للذود عنهم وحمايتهم من أي تهديد يمكن أن يترتب بهم. ولعل هذا الشرط لم يكن كافياً لإقناع هذه الجماعات لذا "فالشخصية التي كانت تظهر علائم النزعم في المجتمعات البدائية، كانت ملزمة كشرط مسبق — لكي تحظى بالتكريم والتعظيم — بتقديم ليس فقط ما يبرهن على قدراتها القتالية ومهاراتها القيادية وإمكاناتها الاقتصادية فحسب، بل كذلك ما يثبت علاقتها بالآلهة، وصلاتها بالأرباب، فضلاً عن حمل الجماعة المعنية بالاعتقاد بصحة ذلك النسب أو تلك العلاقة، استناداً إلى موروث أسطوري متقادم يؤيد ويؤكد تلك السلسلة من الأنساب والعلاقات"⁷.

5 - المرجع نفسه، ص 56.

6 - ثامر عباس. مرجع سابق، ص 309.

7 - المرجع نفسه، ص 289.

والجدير بالذكر أن "القدسية التي يتميز بها العاهل(الحاكم/ القائد) لا تأتي من الممارسات الدينية، التي كان يقوم بها، كما لا تأتي من التبجيل الذي يحاط به، وإنما العاهل(الحاكم/ القائد)، على العكس من هذا، يقوم بمثل هذه الممارسات الدينية، ويحظى بمثل هذا التبجيل لأنه تميز أولا بالألوهية"⁸.

يبدو أن مهمة الزعيم البدائي كانت صعبة جدا؛ إذ لم تكن تكفيه تضحياته ولا مهاراته وإمكانياته ليحظى بالتبجيل، بل كان يحتاج أيضا إلى ربط نسبه بالآلهة والتدليل على صحة ذلك النسب، فهو وإن كان من زمرة بشرية إلا أن الزعامة تتطلب منه أن يثبت ارتقاءه إلى منزلة الآلهة. لذا "فإن صفة (البطولة/ الزعامة) التي يفترض أنها أسبغت على أولئك الأفراد/ الأشخاص - الذين تمتعوا بمزايا جسمية وعقلية ونفسية، تخطت حدود ما كان متاحا وشائعا ضمن مألوف الجماعة ومتداول في أعرافها - لم يكن مدلولها يقتصر فحسب، على تحليلات ما قد يتبادر إلى للذهن من خصائص القوة البدنية والحنكة القيادية والحظوة الرمزية للشخص الموصوف (بالبطولة)، إنما كانت توحى بأن المعني بها غالبا ما تتمتع برعاية خاصة من لدن القوى الغيبية، التي كان يجهل كنهها ويخشى غضبها ويتجنب لعنتها، بحيث تغدق عليه من فائض بركاتها وتمنحه من معين سلطاتها (...) فالشخصية طبيعية من حيث كونها مقدسة، واتسامها بقواها الخارقة، أو بقدرتها على الخلق، إنما هو ناتج من مقارنتها بالقوة الإنسانية ذات القدرة المحدودة، ولكنها في الأصل شخصية فوقية تتمتع بكل صفات المعاني الإلهية المجردة"⁹.

والأرجح أن "فكرة (الإنسان الإله) أو الكائن البشري الذي يتمتع بقوى إلهية أو خارقة للطبيعة - في جوهرها - ترجع إلى تلك الحقبة الأولى من التاريخ الديني، التي كان ينظر فيها إلى الآلهة والبشر على أنهم كائنات من نوع واحد تقريبا"¹⁰.

وخلاصة القول "فإن اتكاء البطل على أصله الإلهي والاكتفاء بعلاقته بالأرباب، لا يحضه المبرر الكافي لادعاء التعالي كما لا يضيف عليه هالة التقديس ما لم يدعم ذلك الامتياز بالأعمال الجليلة والأفعال العظيمة، التي تتخطى حواجز المألوف وتتجاوز

8 - المرجع نفسه، ص 67.

9 - ثامر عباس. مرجع سابق، ص 59.

10 - المرجع نفسه، ص 231.

سقف التوقعات. وبالمقابل فإن كل ما يقدم عليه البطل من مبادرات جريئة ويصدر عنه من توضيحات جسيمة، لا تشكل ضمن سيرورة الجماعة البدائية استثناء تستحق عليه الثناء (...). طالما البطل يعجز عن إثبات تفوق أصله الإلهي¹¹.

وباختصار شديد "فإن سلطة القيادة كانت مزيجاً من الوراثة الشرعية والدينية، مع سحر الشخصية القيادية فكان لا بد للقادة أن يكون لهم علاقة بالآلهة كما في الحضارة الفرعونية، أو هم جنود الآلهة المنتخبون كما في الحضارة الفارسية القديمة، أو هم جزء من المكون الإلهي الديني كما في حضارات ما بين النهرين؛ كالسومرية والآكدية والآشورية"¹².

يتبين مما تقدم أن القائد سواء كان في هيئة الزعيم أو في مظهر البطل أو في رداء كاهن، لا بد له أن يثبت وجوده لجماعته ليس فقط بما يظهره من حنكة قيادية أو توضيحات بطولية أو آراء دينية، بل بما يبرهن على نسبه الإلهي، فهل حقق هذا القائد ألوهيته المنشودة بين البشر؟ وهل نال ما كانت تناله الآلهة من قدسية؟ أم أن تلك الصورة التي رسمها البدائيون لزعمائهم لم تكن محض محاكاة لنموذج خيالي تسابق الأفراد للاقتراب منه؟

قداسة الزعامة وتشكل الديانة

في إطار بحثه عن أصل الدين "يقول الباحث بول أندري غولباخ بأن خوف البشر الأولين من الكوارث الطبيعية جعلهم يفسرونها تفسيراً مادياً، ومن ثم أصبحوا يخضعون لموجودات غير مرئية توجه هذه الكوارث وتقودها"¹³. وبالتالي فإن خوف الإنسان البدائي من الكوارث قد أدى به - في رأي غولباخ - إلى الخضوع لموجودات غير مرئية، كانت محض افتراض سرعان ما سيطر على فكره فصدّقه، "فليست الأشياء نفسها التي تخيف الإنسان وإنما أفكاره عنها وأوهامه بشأنها"¹⁴.

11 - المرجع نفسه، ص 69.

12 - المرجع نفسه، ص ص 63-64.

13 - سيرغي يتوغارييف. ترجمة: أحمد فاضل، الأديان في تاريخ شعوب العالم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ص 21.

14 - مجدي الجزيزي. الفلسفة بين الأسطورة والتكنولوجيا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001، ص 20.

"وقد اتفق كل من توماس غويس (1588 – 1679) وبندىكت سبينوزا (1632 – 1677) و جون تولاند (القرن

18م) على فكرة مفادها أنّ تطلع الإنسان للبحث عن أسباب مختلف الظواهر وخوفه من القوى الخفية وقلقه الدائم من المستقبل المجهول بالإضافة إلى عدم ثقته في قواه اتجاهها قد مثّلت البذور الأولى للكثير من الاعتقادات الدينية"¹⁵. وهذا يجتمع خوف البدائي وعدم ثقته بنفسه ليبدأ في عقله روح البحث عن تفسير للظواهر التي باتت تهدده، "وهذا ما ساهم في احترامه لكل القوى التي تؤثر في حياته دون أن يتعرف كنهها، ولم يلبث أن كوّن في ذهنه صوراً لها، وأخذ يعطي كلاً منها شكلاً معيّناً وإسماء خاصة، بل أخذ يتمثلها على طريقته الخاصة، فجعل من بعضها أصدقاء ومن البعض الآخر أعداء ومن هذا الشعور نشأت الديانة التي لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط به وتؤثر عليه"¹⁶

وفي السياق ذاته يقول دي بروس: "أن الشعوب بعد قرون من البربرية ترسخ خلالها المحافظة الشديدة لتصل إلى تفهم أفضل، ويصل كل شعب، حتى عند الشعوب المتحضرة، إلى إحساس بقوة عليا، ذلك أن الضعف الإنساني يترك بصماته على تخيلات الإنسان. هذه التعبيرات الإنسانية التي تثيرها القوى العليا أربعة هي: الخوف والتعجب والشكر والعقل. ومن بين هذه الأربعة يظهر الأخيران عند الشعوب المتحضرة، لكن المتوحشين لا يعرفون إلا الظاهرتين الأوليتين (الخوف والتعجب) فالحوادث غير المعتادة مثل الأزمات والأمراض والحروب تُكره الإنسان المرتعب على شخصنة الأسباب ورؤيتها كفتيش"¹⁷.

لقد تبين لنا مما سبق أنّ الجماعات البدائية حين عجزوا عن التصدي لقوى الطبيعة ومجاراتها فسروا مظاهرها بأن وراءها قوى خفية أقوى منهم تقودها نحوهم، ولأن الخوف فطري في البشر فقد خاف جلهم من هذه القوى التي سرعان ما أعلنوا إذعائهم ورضوخهم لها، ومن ثمّ تقدّسهم لها باعتبارها آلهة تستحق العبادة، وعليه يجتمع خوف البدائي وخياله وضعفه ليساهموا في تشكل معتقداته الدينية.

15 - سيرغي توغارييف. مرجع سابق، ص ص 20-22.

16 - حسين الشيخ. ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2014، ص 26.

17 - مهنا يوسف حداد. الأنثروبولوجيا الدينية أو العلاقة التبادلية بين ظاهري الحضارة والديانة، دار اليازوري، الأردن، 2011، ص ص 70-71.

وقد مرّ معنا في هذا البحث أيضا أن الأزمة ولدّت الهمة؛ إذ ظهرت شخصيات أثبتت جدارتها وحنكاتها في مواجهة هذه الكوارث وإنقاذ جماعاتها من الهلاك، ولأن العمل الاستثنائي يثير لدى الغالبية عجبا ثم إعجابا فقد أعجبت هذه الجماعات بتلك الشخصيات ورأت فيها ما يؤهلها للزعامة؛ وبنت اعتقادا مفاده أن تلك الأعمال المنجزة لن تصدر عن بشر عاديين ما لم يحملوا مورثات من القوى نفسها التي تقود مظاهر الطبيعة، وبالتالي لا فرق عندهم بين القوى المؤلّهة وهؤلاء الأفراد الأبطال إلا في درجة القوة التي تكاد تحاكي قوة الآلهة، وبما أن القوي - في نظرهم - يستحق التأليه شأن القوى الغيبية الغامضة، فقد رُفِع هؤلاء الأشخاص إلى مرتبة الآلهة، وأوكلت إليهم مهمة حماية الجماعة والدفاع عنها. ولهذا فقد نصبوا كملوك وزعماء وحظوا بالتبجيل والتقدّيس.

ولأن مصالح الأفراد كانت مرتبطة بحياة هذا الملك/ الزعيم، الذي وفّر الحماية والأمان لشعبه وقت الخطر، فقد بذلت رعيته كل جهدها لتوفير الأمان له، وحمايته من أي تهديد يمكن أن يترصده، ذلك أن "ضرورة حماية الملك من الأخطار المحتملة تنبع من الدور الضخم الذي يضطلع به في حياة رعاياه. فشخصه، بحصر معنى الكلمة، هو الذي يضبط مسيرة العالم؛ وعلى شعبه أن يعترف له بالجميل ليس فقط على الغيث ونور الشمس الذي ينبت ثمار الأرض، بل كذلك على الريح التي تستاق السفن إلى الساحل، وعلى الأرض التي يطأها الناس بأقدامهم. إن ملوك البدائيين هؤلاء يحوزون قوة وقدرة على توزيع السعادة لا تقر بمثلها الشعوب الأقل بدائية إلا لآلهتها وحدها"¹⁸.

وعليه، فالمهمة التي كانت الآلهة تقوم بها قد انتقلت عند هؤلاء الشعوب إلى زعمائهم؛ لذا لم يعد الزعيم حاميا فحسب؛ بل مغدقا بنعمه التي تتجاوز حدود مملكته إلى العالم بأسره؛ فالشمس والمطر والرياح وثمار الأرض وحتى حظ الناس من السعادة اعتبرت من أفضال الملوك على رعاياهم، "كما اعتبرت أوامرهم ونواهيهم والأعراف التي استنوها في حياتهم، بمثابة شرائع مقدسة فرضها على الناس خلفاؤهم، الذين رفعوا أيضا إلى المرتبة نفسها وعبدوا إلى جانب سابقهم. وبذلك تم تشكيل مجمع الآلهة الأول، بحيث أخذ الزعيم الأقدم دور الإله الأكبر ومن تلاه دور الآلهة الأدنى"¹⁹.

18 - سيغmond فرويد. ترجمة: جورج طرابيشي، الطوطم والحرام، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط2، 1997، ص 61.

19 - ثامر عباس. مرجع سابق، ص 232.

يبدو أن العناية والحماية والطاعة التي حظيت بها الآلهة البشرية قد عكست خوف الرعية على الملك؛ إذ أيّ تهديد للملك لا يعد تهديدا له وحده بل هو تهديد لكل أفراد القبيلة، لكن الملك حتى ولو رفع إلى مرتبة الآلهة فهو يبقى بشرا معرضا للموت، فإلى أي مدى أفلحت هذه الجماعات في حماية إلهها البشري من الموت؟ وما هي الطريقة البديلة التي ابتدعتها لتحافظ على بقائه ضمن الجماعة مادام سيموت لا محالة؟

فكرة الموت والخلود

يعدّ الموت فكرة لطالما ارتسمت في المخيلة البشرية، على أنها الفاصل الذي يضع حدا بين الأحياء والأموات، بحيث يغرب الميت إلى الأبد بعد أن يتفتّن أقاربه في مواراة جثمانه²⁰، لكن عند القدامى يختلف الأمر تماما فالأموات عندهم لا يغادرون بلا رجعة؛ بل تغيب أجسادهم، وتبقى أرواحهم متشبثة بالأماكن التي كانوا يسكنونها. " فالإنسان البدائي لا يعتقد أن أحدا يموت موتا كاملا، فالموت بالنسبة له لا يعني بأي حال من الأحوال التوقف الخالص والبسيط لأشكال النشاط والوجود كافة، إنه لا يكون أمرا مطلقا أبدا... وفي معظم المجتمعات البدائية يكتسب الخلود يقينا لا يحلم الفرد بالتشكك فيه إلا بقدر ما يتشكك في واقعية وجوده الواعي"²¹.

من وجهة نظر كهذه، لا يعتبر الموت موتا كاملا بل هو مجرد استمرار للحياة؛ إذ لا يغادر الميت الوجود كلياً إنما يظلّ خالداً؛ ذلك أن "أرواح الأسلاف لا تغادر عالم الأحياء، وإنما تسكن تلك الكائنات والكيانات وتقمص شخصياتها بحيث تكون قريبة منهم ومحيطه بهم وراعية لهم"²². وهذا ما اعتقدته قبائل الأوجيبوا في شرقي الولايات المتحدة في أن الميت "يبقى كائنا واعيا

20 - للاطلاع على كيفية دفن الموتى لدى بعض الشعوب القديمة، يراجع: حنا عبود. الميثولوجيا العالمية، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2009، ص 122، 157 وحسن نعمة. الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، بيروت، دار الفكر اللبناني، (د.ط)، (د.ت)، ص 20، 82، 93، 97، 104.

21 - جاك شورون. ترجمة: كامل يوسف حسين، الموت في الفكر الغربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1984، ص 22.

22 - ثامر عباس. مرجع سابق، ص 113. "وقد أشار الباحث (ج. بري) إلى أن عبادة الآلهة في كل أجزاء الدنيا هي في الأصل عبادة للأحدا اعتنقها أعضاء الجماعات الحاكمة، وينفي أن تكون الشعوب قد تخيلت آلهة ثم عبدها بعد ذلك".

على نحو ما كان وهو على قيد الحياة، إن موته قد حال ببساطة بينه وبين الاتصال بالأحياء بطريقة يمكنهم التعرف عليها... وبالنسبة للأحياء فإنه يظل متمتعاً بالرغبات البشرية العادية جميعاً²³.

"وقد آمن المصريون أيضاً بخلود الروح، وأرادوا للسعادة التي عرفوها في الحياة أن تستمر بعد الموت. وذهبوا إلى وجود نفس محرك مركزها القلب، سموها (با) وصوروها على هيئة طائر ذي رأس بشري، ونفس مفكرة مركزها الرأس، سموها (كا) وصوروها على هيئة ذراعين ممدودتين. وكانوا يحنطون جسم الميت ويملأون ضريحه طعاماً وشراباً من أجل (با) التي تستطيع الدخول والخروج متى شاءت من كوة صغيرة لهذا الغرض، ويصنعون له تمثالاً بحجمه الطبيعي من أجل (كا)، يضعونه فوق الضريح. واعتقد بعضهم أن الأرواح تتحول نجوماً أو تتحدّ مع إله الشمس. ومنهم من جعل الروح الصالحة ترتع في مملكة أوزيريس، وهي أرض مغموطة تشبه الجنة. وهناك نجما المرء في سعادة تحت ظلال الأشجار، ويلهو بمرح مع زوجته أو يتحدث مع أصدقائه..."²⁴

على هذا النحو تختزل ماهية الموت عندهم في فكرة واحدة هي غياب الأحياء عن الأنظار بحيث تصعب رؤيتهم أو معرفتهم ذلك أنهم لم يفقدوا الاتصال مع الأحياء فحسب؛ إنما سكنوا كيانات أخرى، أما فيما يتعلق بالرغبات فيبقى الميت متمتعاً بها كما لو كان على قيد الحياة.

وعلى غرار الأفراد العاديين الذين يبتلون بالموت نتيجة الحوادث التي تؤدي بحياتهم، يتعرض الأبطال والزعماء وحتى البشر المؤهلين للموت، فالبطل كما - يقول باورا- قد "يستغني عن حياته في عمل رائع من أعمال البطولة، ولأنه قريب للغاية من الآلهة في أعماله وإنجازاته، فإنه يعي على نحو أكثر حدة وإيلاماً بأنه بالرغم من ذلك فإن"²⁵. "ولم تنج آلهة المصريين من هذا القدر الذي شمل الجميع، فهم أيضاً شاخوا وماتوا، لكن عندما اكتشفوا فيما بعد فن التحنيط أعطوا الأرواح الميتة فرصة أخرى للعيش من خلال الحفاظ على أجسادهم من التفسخ مدة مفتوحة، وبهذا الاختراع أخذت الآلهة كما أخذ البشر فرصة إضافية

23 - جاك شورون. مرجع سابق، ص 23.

24 - أديب صعب، الأديان الحية نشوؤها وتطورها، دار النهار للنشر، بيروت، 1993، ص 20.

25 - جاك شورون، مرجع سابق، ص 35.

لأمل إضافي في الخلود.... أما كبار الآلهة عند البابليين فكانوا يظهرون لعبدهم في الأحلام والرؤى على شكل أجساد بشرية بكل ما فيها من عواطف فنائية؛ فهم يولدون إلى هذا العالم مثل سائر البشر.²⁶

يبدو أن التحديات العظيمة التي قام بها الزعماء والأبطال والتي أدت بهم إلى مصاف الآلهة، لم تكن لتقيهم من الموت؛ فهم على الرغم من مكانتهم هذه يعون جيدا بأنهم في أي لحظة من اللحظات معرضون للموت، وعلى الرغم من أن موتهم يكون أشد حدة وألما من موت الشخص العادي، إلا أنه يضحي في نظرهم "ذروة الحياة وقمة اكتمالها، ويوصفه آخر المحن التي يتعرض لها الإنسان وأشدّها قسوة، والاختبار الحقيقي لقيمته"²⁷.

موت الآلهة البشرية أو الأبطال المؤهين إذن لا يعد نهاية لحياتهم، إنه ذروتها وقمة اكتمالها، والمعيار الذي تقاس به قيمتهم الحقيقية، ذلك أنهم يعدون "أشكالا انتقالية تصنع جسرا بين الروح الحارسة للجماعة والروح الفردية. وربما كان زعيم القبيلة هو الفرد الأول، الذي منحت له السلطة الجماعية للقبيلة التي لا بد أن تمتزج بإرادته الفردية... غير أن الملك، بما أن الآخرين لا يزالون ينظرون إليه بحسبانته مستودعا للسلطة الاجتماعية التي وجدت قبله وستنتقل إلى خلفه - فإن روحه لا تبدأ ولا تنتهي مع بدء وانتهاء عمره، إنها روح خالدة، ويرجع ذلك إلى أنها بشكل ما، تظل روح الفرد الأعلى في الجماعة، الروح التي تتجاوز حياتها أجيال أعضاء الجماعة كافة"²⁸.

"وقد وجد البحث أن بين الشعوب المتوحشة أرواحا تتراتب في الأهمية فوق بعضها بعض، بحيث أن الإنسان يمكن أن يسمى الأعلى منها آلهة... وفوق ذلك فالآلهة الذين يملكون وظائف مثل آلهة الزراعة، ومملكة الأموات والحرب لهم مكانات رفيعة، غير أن أرواح الأسلاف يمكن أن تأخذ مكانات الآلهة، وبذلك يكون السلف الأقدم بمثابة الإله الأعلى"²⁹.

26 - جيمس فريزر. ترجمة: نايف الخوص، الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين، سوريا، دار الفرقد، 2014، ص 348.

27 - جاك شورون. مرجع سابق، ص 34.

28 - نفس المرجع، ص 25، 26.

29 - مهنا يوسف حداد. مرجع سابق، ص 133. "تعد عبادة الأجداد والأبطال الراحلين واحدة من أقدم أشكال التدين في العالم، وقد عرفها الهنود الإيرانيون بدورهم، لقد اعتقد الإيرانيون القدماء بأن أرواح الأسلاف، يمكنها حماية أرواح أقاربها الأحياء، ولكن شريطة أن يتم تذكرها واستعطافها بالشكل اللائق، يراجع: ثامر عباس. مرجع سابق، ص 137.

إن الاضطراب الذي سيطر طويلا على نفوس البدائيين، جراء الموت الذي يداهم حياة الآلهة البشريين، والذي يمثل تهديدا للجماعة، قد غيّر نحو الزاوية الإيجابية، فبعد أن كان نهاية الحياة، جعلوه قمتها وذروتها، فالزعيم الإله لا يموت موتا كاملا إنما يحيا ما حيت أجيال الرعية، بل إن روحه تزداد قداسة كلما زادت المدة التي تفصل حاضريهم عن يوم موته، وهذه المدة هي التي تحدد مكانته بين الأسلاف الآلهة، فالجد الأول يبقى الإله الأكبر مهما عظمت أعمال أحفاده الآلهة، القضية إذن قضية مدة لا قضية نضال وبطولة. وبالتالي ففكرة الخلود التي تفتن إليها البدائيون كانت أنجع طريقة تحدى بها القدامى الموت لمنح أبطالهم المؤهلين حياة أبدية. وبهذا نكون قد أجبتنا على سؤالنا الذي قمنا بطرحه آنفا حول الحيلة التي وجدتها الشعوب لتحدي الموت والإبقاء على أسلافها حاضرين بينها ولو روحيا.

التناقض في الزعامة القديمة

نذكر من خلال ما مر معنا أن البدائيين قد قدّسوا القوى الغيبية، كما قدسوا زعماءهم، وأن هذا التقديس في كلا الحالتين قد سببه الخوف والعجز حيال الكوارث المفاجئة؛ فالأوائل خافوا الأزومات فألهوا من كان وراءها، ووجدوا في أبطالهم حماة لهم من تلك القوى فيجلوهم وأحقوهم بركب الآلهة، ونعلم بالمقابل أنهم في حين خافوا من تلك القوى فإنهم قد خافوا على زعمائهم من أي تهديد.

وقد أشار سيغموند فرويد إلى هذه القضية، حيث يقول في كتابه الطوطم والحرم بأن "موقف الأقوام البدائية من زعمائها وكهنتها يحكمه مبدآن متكاملان أكثر مما هما متناقضان: وجوب التوقّي منهم ووجوب وقايتهم. ويتم الوصول إلى هذين الهدفين عن طريق جملة من الأحكام الحريمية. ونحن نعلم (يقول فرويد) من قبل لماذا ينبغي التوقّي من السادة: فهم حاملون لتلك القوة السحرية، الغامضة والخطرة، التي تنتقل بالتماس، مثلها مثل الشحنة الكهربائية، وتسبب في موت من لا تتوفر له الحماية بشحنة مكافئة وفي هلاكه. من هنا كان وجوب تحاشي أي تماس، مباشر أو غير مباشر، مع القداسة الخطرة؛ وقد اخترع للحالات التي لا يمكن فيها تفادي عواقبه الوخيمة. فقبائل النوبا في شرقي إفريقيا، مثلا، تعتقد أن الموت عليها محتوم إذا ما دلفت إلى بيت ملكها- الكاهن، ولكن في استطاعها أن تنجو من هذا الخطر إذا ما كشفت، لدى دلوفها إليه، عن الكتف اليسرى وأتاحت للملك أن يلمسها بيده. وعلى هذا النحو تنتهي إلى تلك النتيجة الغريبة التالية وهي أن الملامسة التي تأتي من الملك تغدو وسيلة

شفاء وحماية ضد الشرور التي تتأتى من هذه الملامسة بالذات، ولكنها هذه المرة ملامسة مقصودة وتجاوز، لأنها مقصودة من قبل الملك، قوة شفائية، على حين أن الملامسة الخطرة هي تلك التي يستشعر الفرد فيها أنه آثم في حق الملك؛ وبعبارة أخرى، إنه التضاد بين الموقف السلبي والموقف الإيجابي حيال الملك.....³⁰.

يتبين من خلال هذا القول أن البدائيين قد عاملوا زعماءهم بطريقتين هما في الظاهر متناقضتان لكنهما متكاملتان في رأي سيغموند فرويد: الخوف عليهم والخوف منهم، أما خوف الأوائل على ملوكهم الآلهة فنظن أنه مبرر من ناحيتين؛ الأولى: ارتباط مصالح الجماعة بهم وهذا ما أسهنا الحديث حوله سابقا، والأخرى: امتلاكهم لقوى أقل من تلك التي في حوزة الآلهة؛ وهذا ما يجعلهم عرضة لتهديدها الدائم. وأما خوفهم من ملوكهم فيرده فرويد إلى تلك الطاقة التي يملكونها، والتي تشكل خطرا على الأفراد الأقل قوة، لذلك يجدر بالرعية تجنب أي ملامسة مع الملك إلا إذا كانت تلك الملامسة مقصودة بغرض الشفاء، والتي لم يكن لها خطر عليه.

يبدو لنا جليا من خلال ما عرضناه حتى الآن: أن المواصفات التي تخيلها البدائيون في ملوكهم، والتي رفعوهم بها من بشر عاديين إلى مصاف الآلهة، سرعان ما دخلت حيز التصديق وتوجهت ضدهم؛ فبعدما كان الاقتراب منهم احتماء من الخطر، صار يشكل تهديدا لهم، فهل بقي هذا الخوف يلازم الملك المؤله دائما، أم أن مكانته المقدسة مهددة بالزوال؟

الزعامة: عقوبة أم تقديس؟

يحظى الملوك في العادة بالرفاهية الزائدة والمكانة العالية والسلطة المطلقة، وهي رغبات لا طالما تمنهاها الأفراد في أي زمن وفي أي مكان، لكننا نرى عكس ذلك عند بعض الشعوب؛ ففي "قبيلة تيمو في سيراليون يحتفظ الأفراد لأنفسهم بالحق في أن يوسعوا الملك الذي ينتخبونه ضربا في عشية اليوم السابق لتتويجه؛ وهم يفون بكل اندفاع بهذا الحق الدستوري إلى حد أن العاهل التعيس الحظ غالبا ما يفارق الروح قبل تسلمه العرش"³¹.

30 - سيغموند فرويد، مرجع سابق، ص 59.

31 - نفس المرجع، ص 69.

وفي غينيا(غربي إفريقيا) "يعيش الملك – الكاهن، كوكولو، منفردا في الغابة. وحرام عليه أن يلمس امرأة، أو يغادر بيته، بل حرام عليه حتى أن ينهض عن كرسیه، الذي ينام عليه جالسا. فلو تمدد ليرقد لتوقفت الريح عن الهبوب، فتضطرب أحوال الملاحة. وقوام وظيفته أن يهدئ العواصف، وبصفة عامة أن يسهر على بقاء الأحوال الجوية عادية... فكلما كان الملك من قبائل اللوانغو قويا، كانت أكثر تعدادا الحرمات التي يتعين عليه أن يراعيها. ووريث العرش يتقيد بها منذ نعومة أظافره، ولكنها تتراكم من حوله أكثر فأكثر كلما شب عن الطوق: ويوم يتسلم العرش فإنه ينوء تحت كثرتها إلى حد الاختناق"³².

"ويعتقد الميكادو أنه مما لا يليق بمكانته وصفته المقدسة أن يلمس الأرض بقدميه. لذلك يحمله خدمه على أكتافهم حينما تدعو الضرورة إلى أن يقصد مكانا ما، ولكن لا يليق أيضا أن يتعرض لشخصه للهواء الطلق، وحتى الشمس ينكر عليها شرف إضاءة رأسه. وجميع أجزاء جسمه تخلع عليها صفة مسرفة في قداستها، فيحرم عليه حتى أن يقص شعره ولحيته، ولا يجوز له أبدا تقليد أظافره. ولكن حتى لا تمنع عنه كل عناية على الإطلاق، فإنه يغسل ليلا، فيما هو نائم؛ وما ينتزع من جسمه في هذه الحالة يمكن أن يعد وكأنه سرق منه، ولكن سرقة من هذا القبيل لا يمكن أن تعد ضارة برفعته وقداسته. وكان لزاما عليه أيضا فيما سلف أن يجلس على عرشه صباحا لبضع ساعات متتالية، والتاج الإمبراطوري على رأسه، بدون أن يحرك ذراعيه أو ساقيه أو رأسه أو عينيه، فعلى هذا النحو فقط يمكنه، كما كانوا يتصورون، أن يقيم السلم ويحافظ على الهدوء في الإمبراطورية. فإن شاء سوء الطالع أن يستدير إلى جانب أو إلى آخر، أو إن لم يتجه بصره لوهلة من الزمن إلا نحو جزء من إمبراطوريته، فإن ذلك قد يجلب على البلاد حربا أو مجاعة أو طاعونا أو حريقا أو أي كارثة أخرى من شأنها أن تتأدى بها إلى الهلاك"³³.

يتبين لنا مما سبق أن التاج التي يحلم الأغلبية بارتدائه، وكرسي الزعامة الذي يرغب الكل في الجلوس عليه، هو نقمة في نظر بعض الملوك الذين حملوا ما لا طاقة لهم به بعد اعتلائهم العرش، فالزعيم مجبر عند بعض الشعوب على فعل الكثير من الأمور التي تضيق الخناق عليه، فإلى جانب الحماية الدائمة التي يجدر به تقديمها لجماعته وسائر المهام التي تحفظ للرعية هيبتها ومكانتها وهويتها، يتحمل الملك تبعات ما قد يحصل من كوارث وأمراض، "بل ذهب بهم الحرص على حسن سيرورة العلاقات الاجتماعية شأوا متطرفا، حين وضعوا أوزار اعتلال صحة الجماعة على عاتقه، معتبرين أن سوء طالعهم هو السبب وراء ما يصيب الجماعة

32 - سيغmond فرويد، مرجع سابق ص 64.

33 - نفس المرجع، ص 63، 64.

من أزمات وانتكاسات³⁴. فقط لأنهم يعتقدون أن أي تصرف من قبله سواء كانت التفاتة أو قيام من الكرسي قد تجلب الفأل السيئ لهم، وحتى بعض الأمور التي تعد حاجة فطرية من حقه الاستمتاع بها كأى إنسان عادي، يحرم منها، ولا يقوم بها إلا في وقت يرونها مناسبة لذلك، فهل هذه زعامة أم عبودية؟ ولماذا يبذل الزعيم نفسه بأمر تحرمه من أتفه الحقوق؟ أ حبا في البطولة أم أن في الأمر دافعا آخر؟ وإلى أي حد استطاع الملوك الصمود أمام معتقدات شعوبهم التي ما فتئت تتضاعف جيلا بعد جيل؟

اضمحلال قداسة الزعامة وتلاشيها

الواقع أنه على الرغم من المكانة المقدسة التي تحيط بها الشعوب البدائية ملوكها، والخوف الذي ينتابها منهم وعليهم إلا أنها "لم تكن تسمح أو تجيز لأولئك الملوك والأبطال - على أهميتهم بالنسبة لأنماط عيشها وخصائص تفكيرها - التنصل عن مسؤولياتهم حيال وحدة الجماعة الداخلية ومصالحها، مثلما التقاعس في واجباتهم إزاء أمنها الخارجي وسلامتها، وإلا فإنهم سيعرضون أنفسهم ليس فقط للمحاسبة العرفية والمساءلة الأخلاقية فحسب، بل وربما يواجهون الطرد أو القتل في بعض الحالات، ... الأمر الذي يتطلب إجراء فوريا وحاسما غالبا ما يكون ضحيته الملك/ الإله"³⁵.

إن التضحيات التي قدمها الملوك البدائيون لتأمين السلامة لرعاياهم، بالإضافة إلى الأوزار التي يتقلون بها كواهلهم بعد تسلم الزعامة، لم تكن لتحميمهم من غضب الجماعات إن هم أحسوا بتقصيرهم حيالهم، ذلك أن "العاهل في الأنظمة الملكية (البدائية) لا يحيا إلا من أجل رعاياه ولا قيمة لحياته إلا مادام يضطلع بالتزامات وظيفته ويسوس مجريات الطبيعة لما فيه خير شعبه وبدءا من اللحظة التي يتهاون أو يمتنع فيها عن الوفاء بهذه الالتزامات ينقلب الالتفات والتفاني والتوقير الديني الذي كان يتمتع به من أعلى درجة إلى حقد وازدراء . فيطرد مجللا بالعار والشنار، ويعتبر نفسه سعيدا إذا أفلح في النجاة بحياته. ولئن كان يعبد اليوم وكأنه إله من الآلهة، فقد يقتل غدا كما يقتل المجرم (...). فإن يكن الملك إلههم فلا بد أيضا، كما يعتقدون، أن يثبت أنه حاميتهم؛ وبما أنه لا يريد حمايتهم فعليه أن يخلي مكانه لملك آخر يكون أحسن استعدادا لفعل ذلك"³⁶.

34 - ثامر عباس. مرجع سابق، ص 123.

35 - ثامر عباس، مرجع سابق، ص ص 122، 123.

36 - سيغموند فرويد، مرجع سابق، ص 62.

وإن كانت هذه الجماعة قد رحمت زعيمها بعد قتلها أو عجزه عن أداء مهامه؛ واكتفت بتنحيته عن منصبه أو طرده، وتنصيب من هو أكثر جدارة؛ فإنّ غيرها من الجماعات "لم تكن لتتوانى عن التضحية به إن استشعرت فيه الضعف وانعدام المقدرة، من منطلق اعتقادها أنه بات يشكل نذير شؤم على الجماعة برمتها"³⁷. ذلك أن "مظاهر التعظيم والتكريم - ناهيك عن التأليه والتقدّيس- لم تكن لتحول دون إنزال العقوبات المادية والرمزية بالزعماء أو الملوك المجليين بامتيازاتها، حيثما ثبت تقصيرهم في أداء واجباتهم الدينية والقيادية، وبأن عجزهم حيال تأمين الاحتياجات الضرورية للجماعة المعنية"³⁸.

"وينقل لنا الباحث جيمس فريزر أفعالا في غاية الطرافة عن بعض البدائيين الذين لم يجدوا حلا لوقاية الزعيم المؤله من الشيخوخة والوهن ثم الموت إلا قتله. بمجرد ظهور أعراض الضعف عليه، إذ لهذا القتل مزية واضحة لديهم؛ ذلك أن موته طبيعيا سيضيّع روحه من عابديه وستفرض هذه الروح العودة إلى هذا الجسد، أما إذا قتلوه بأنفسهم فسيسهل عليهم التقاط روحه وهي تخرج من منخره أو فمه ونقلها إلى خلفه وهي في كامل قواها قبل أن يدب فيها الوهن، وبهذا يدرؤون عن أنفسهم جميع الأخطار المحدقة بهم؛ فشعب الكونغو مثلا يعتقد أنه عندما يوشك الإله على الموت الطبيعي يهلك العالم وتُمحق الأرض التي تستمد قوتها منه، وبالتالي عندما يبدو على الخبر أنه ميت جراء مرضه يقوم الذي قدر له أن خلفه بالدخول إليه ومعه إما جبل يخنقه به أو هراوة يضربه بها حتى الموت، وفي مملكة بونيرو في إفريقيا الوسطى، تجبر الرعية الملك بقتل نفسه إذا رأوا فيه مظهرا من مظاهر الخوف؛ ذلك أن العرش سينهار حالما تنقطع السلالة. يموت الملك موتا طبيعيا، وهناك من الشعوب القديمة من تقطع ملكها إربا إربا. بمجرد ظهور التجاعيد على وجهه وأخرى تسجنه حتى الموت مع فتاة عذراء حالما يفقد القدرة على أداء واجباته الزوجية تجاه زوجاته المتعددات، وأخرى ترميه وسط معركة طاحنة بدون حماية"³⁹.

نخلص أخيرا إلى أن حرص الشعوب البدائية على حياة زعمائها المؤلهين، لم يكن ليدوم ما لم تدم قدرتهم على القيام بواجباتهم وقوتهم التي يفرضون بها سيطرتهم على الرعية، فذلك التقديس مرهون بالواجب والقوة ودوام الشباب، وأن أي تقصير أو ضعف يعني فقدان الهيبة والمكانة وفي أسوأ الأحوال الهلاك.

37 - ثامر عباس، مرجع سابق، ص 301.

38 - ثامر عباس، مرجع سابق، ص 67.

39 - جيمس فريزر، مرجع سابق، ص ص 347-356 (بتصرف).

يسعنا الآن أن نقول: أن الشجاعة التي أظهرها الزعماء في تحدي الكوارث ورفعها عن شعوبهم، والتي أنزلوهم بسببها منزلة الآلهة، قد صارت بامتياز مصدرا لتهديد أشد حفزته رغبات الرعية في نفوس زعمائها الذين طالبتهم بالاستمرار في أداء خدماتهم الجلية، بل وزادت على ذلك أن حملتهم أوزارا فوق طاقتهم بتحميلهم تبعات حظهم النعيس، وقد بلغ الخطر حد التضحية بهم في حالة التقصير. كما أن الصراع الظاهر الذي نشب بين هؤلاء الأبطال وقوى الطبيعة، والذي حظي بمباركة الجماعة وتأييدها، قد تحول في الباطن إلى صراع بين الملك والرعية، هذا الصراع الذي عبر عنه التنصل من الزعامة في أفضل تجلياته لدى بعض الشعوب القديمة.

ففي "بعض بلدان غربي أفريقيا ينعقد مجلس سري، غب وفاة الملك، ويجري فيه تسمية سلفه، ومن يقع عليه الاختيار يلقي القبض عليه، ويشد وثاقه، وتضرب عليه الحراسة في بيت الوثن، إلى أن يعلن عن استعداده لقبول التاج. وفي بعض المناسبات يجد الوراث المحتمل للعرش الوسيلة المناسبة للتملص من الشرف الذي يراد فرضه عليه: فمما يروى، مثلا، أن زعيما من الزعماء اعتاد على حمل سلاحه ليل نهار كي يتمكن من أن يقاوم بالقوة كل محاولة لتنصيبه على العرش. ولدى زواج سيراليون كانت محاولة فرض المنصب الملكي تقابل بمقاومة شرسة، مما اضطر معظم القبائل إلى إيكال أمر هذه الوظيفة إلى الأغراب"⁴⁰.

خاتمة

نقف الآن على ختام الفكرة التي نحن بصدد معالجتها في بحثنا وهي: أن القداسة التي حققها الزعماء نتيجة شجاعتهم وذودهم عن الجماعة، لم تلبث أن انقلبت ضدّهم. بمجرد ظهور علامات العجز أو التقصير، إذ قامت جماعاتهم بالتخلي عنهم سواء بتنحياتهم أو التضحية بهم، غير أنها وجدت حلا آخر تضمن به للزعيم الخلود في تضاعيف ذاكرتها وهو تخليد روحه وزيادة قداسة ذكراه. مرور الأزمنة واستمرار أجيال الشعب الواحد، فهل مازال زعيم اليوم مهددا بأخطار كهذه؟ أم وجد حلا قدمته له تجارب السابقين؟

قائمة المراجع

1. صعب أديب. الأديان الحية نشوؤها وتطورها، دار النهار للنشر، بيروت، 1993.
2. عباس ثامر. تقديس الزعامة دراسة في ظاهرة الكاريزما السياسية، منشورات الاختلاف/ منشورات ضفاف، الجزائر/ الرباط، 2015.
3. شورون جاك. ترجمة: كامل يوسف حسين، الموت في الفكر الغربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 198.
4. فريزر جيمس. ترجمة: نايف الخوص، الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين، سوريا، دار الفرقد، 2014.
5. نعمة حسن. الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، بيروت، دار الفكر اللبناني ، (د.ط)،(د.ت).
6. الشيخ حسين. ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2014.
7. عبود حنا. الميثولوجيا العالمية، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2009.
8. يتوغارييف سيرغي. ترجمة: أحمد فاضل، الأديان في تاريخ شعوب العالم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
9. فرويد سيغموند. ترجمة: جورج طرابيشي، الطوطم والحرام، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط2، 1997.
10. الجزيزي مجدي. الفلسفة بين الأسطورة والتكنولوجيا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001.
11. حداد يوسف مهنا. الأنثروبولوجيا الدينية أو العلاقة التبادلية بين ظاهري الحضارة والديانة، دار البازوري، الأردن، 2011.